رؤى عالمية

العدد 29، 27 يونيو 2023

7 كتب أجنبية:

ماذا تقرأ لفهم مجتمع الاستخبارات حول العالم؟

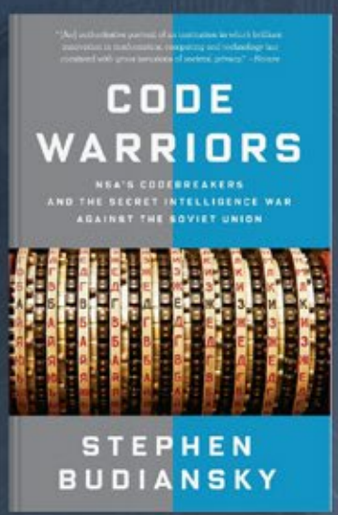

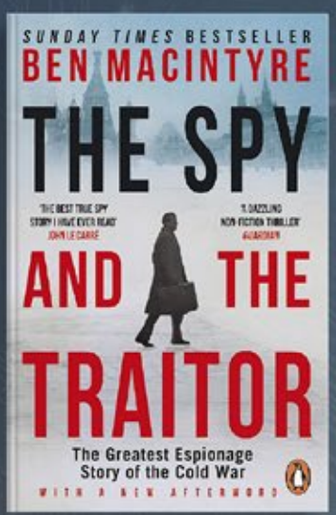

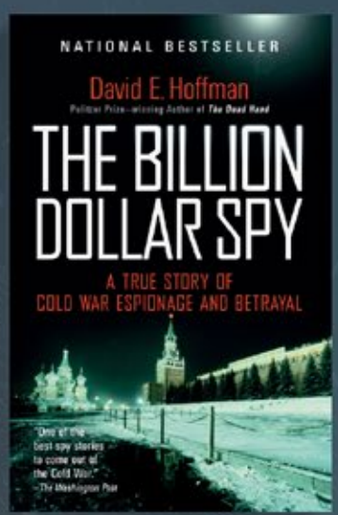

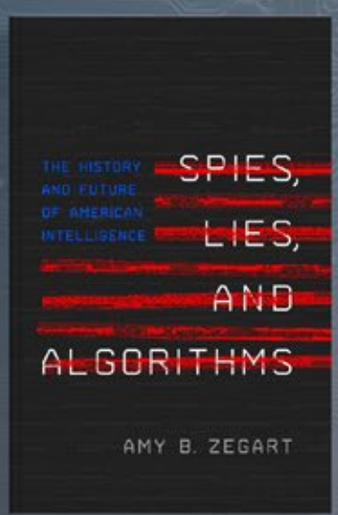

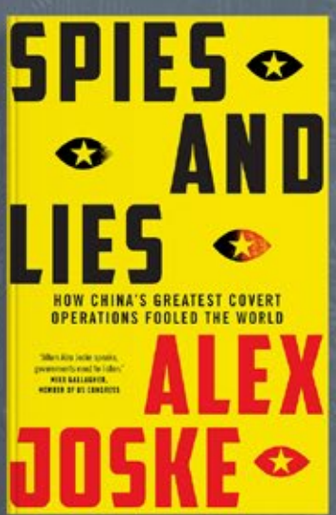

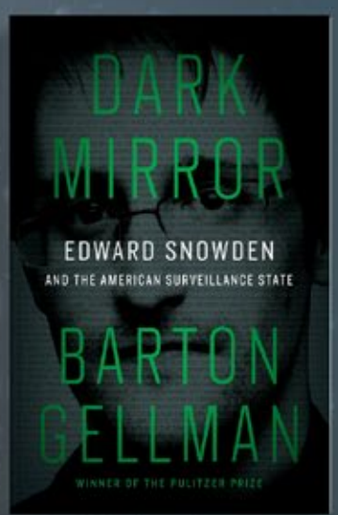

المستقبل
للأبحاث والدراسات المتقدمة

إعداد:

عمار ياسين
باحث في دراسات السلام والصراع

تحرير:

أحمد عاطف
رئيس التحرير التنفيذي للموقع الإلكتروني - المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة

أدت أجهزة الاستخبارات دوراً في استشراف الحرب الروسية الأوكرانية قبل اندلاعها في 24 فبراير 2022، وفي تتبُّع ورصد الانتقال من دائرة «الصراع الكامن» (Latent Conflict)، إلى «الصراع الظاهر» (Surface Conflict)، ثم إلى «الصراع المفتوح» (Open Conflict) بين روسيا والغرب، وليس فقط بين موسكو وكييف. واكتشفت وكالتا الاستخبارات الأمريكية (CIA) والبريطانية (MI-6)، خطط هذه الحرب قبل موعدها المُحدد بأشهر، من خلال رصد حشد القوات الروسية على حدود أوكرانيا، وذلك ربما في أكبر عملية استخباراتية شهدها العالم منذ أزمة الصواريخ الكوبية في فترة الحرب الباردة.

من ناحية أخرى، مرت الاستخبارات الروسية بوقت عصيب طوال العام الماضي وحتى وقتنا الراهن، حيث أخفقت في البداية في المساعدة على إتمام إنجاح «العملية الخاصة» في أوكرانيا، وبعد فترة وجيزة طُرد نحو 400 من الضباط الروس من عدة سفارات في الولايات المتحدة وأوروبا؛ حيث صنفوا بأنهم «عُملاء سريون غير شرعيون» يعملون بشكل غير مُرحّب به في كل من هولندا، والنرويج، وبولندا، وسويسرا، من دون غطاء دبلوماسي.

وفي هذا الإطار، يعرض العدد (29) من سلسلة «رؤى عالمية» الصادرة عن مركز «المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة» سبعة كتب متنوعة أوصت بها مجلة «إيكونيميست» البريطانية لفهم مجتمع الاستخبارات في العالم[1]، حيث تُغطي مناحي العمل الاستخباراتي منذ الحرب الباردة وحتى الآن. وتُسلط الضوء على ماضي وحاضر العمل السري وتستشرف أدواره في مختلف القضايا الدولية ذات الصلة، بدءاً من مستوى العمل الاستخباراتي التقليدي القديم، وصولاً إلى الحملات الإلكترونيّة المُنظّمة والحرب النفسيّة التي يتم شنّها عن طريق الإنترنت، وفي ظل شيوع «الاستخبارات مفتوحة المصدر» كمُتغيّر جديد.

• **"رؤى عالمية"** تصدر عن "المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة"، وتهدف إلى عرض أبرز ما يُنشر في مراكز الفكر والمجلات ودور النشر العالمية، من أفكار غير تقليدية واتجاهات صاعدة في مختلف المجالات السياسية والأمنية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والتكنولوجية.

• الآراء الواردة في الإصدار تعبر عن كُتّابها، ولا تعبر بالضرورة عن آراء "المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة".

1- What to read to understand intelligence and espionage, The Economist, December 21, 2022, Accessible at: https://shorturl.at/glKT6

المحتويات:

جاسوس المليار دولار: قصة حقيقية من التجسس والخيانة في الحرب الباردة 4

الجاسوس والخائن: أعظم قصة تجسس في الحرب الباردة 5

محاربو الشفرة: مخترقو الشفرة في وكالة الأمن القومي الأمريكية وحرب الاستخبارات السرية ضد الاتحاد السوفيتي 6

المِرآة المُظلمة: إدوارد سنودن ودولة المراقبة الأمريكية 7

جواسيس وأكاذيب: كيف خدعت أعظم عمليات الصين السرية العالم؟ 8

التدابير النشطة: التاريخ السري للمعلومات المُضللة والحرب السياسية 9

جواسيس وأكاذيب وخوارزميّات: تاريخ الاستخبارات الأمريكية ومُستقبلها 10

جاسوس المليار دولار:
قصة حقيقية من التجسس والخيانة في الحرب الباردة

David E. Hoffman, The Billion Dollar Spy: A True Story of Cold War Espionage and Betrayal, Icon Books, 2018.

في هـذا الكتـاب، يـروي ديفيـد هوفـمان، قصـة حقيقيـة أثنـاء الحـرب البـاردة لأدولـف تولكاتشـيف، مُهنـدس الإلكترونيـات السـوفيتي الـذي عمـل في عُمـق قـوات الدفـاع الجـوي السـوفيتي وقـدّم وثائـق حيويـة عـن الأسـلحة السـوفيتية إلى وكالـة الاسـتخبارات المركزيّـة بـين عامـي 1979 و1985، ويتسـاءل: كيـف تفوّقـت وكالـة الاسـتخبارات المركزيّـة الأمريكيـة (CIA) عـلى وكالـة الاسـتخبارات السـوفيتية السـابقة (KGB) في معقِلهـا وقامـت بـزرع العديـد مـن العُمـلاء السّريـين لسـنوات في موسـكو؟

انتقام تولكاتشيف:

اعتمـد الكتـاب عـلى وثائـق رُفعـت السريّـة عنهـا منـذ سـنوات قليلـة، وأسـهمت في معرفـة خفايـا الحـرب البـاردة التـي دارت بـين الولايـات المتحـدة والاتحـاد السـوفيتي السـابق حتـى انهيـاره في عـام 1991. ويـروي عـن تولكاتشـيف، رغبتـه الشـديدة في الانتقـام لعائلـة زوجتـه بسـبب مـا تعرّضـوا لـه، حيـث أُعدِمـت أُمّهـا وأُرسـل والدهـا إلى مُعسـكرات السُّـخرة التـي أعدّهـا الزعيـم السـوفيتي السـابق جوزيـف سـتالين، في النصـف الأول مـن القـرن العشريـن لمُعاقبـة المُعارضـين ومُثـيري الشـغب ومُحـدثي القلاقـل. وذلـك جنبـاً إلى جنـب مـع وجـود بُعـد أيديولوجـي لـدى تولكاتشـيف، يتمثـل في اسـتنكاره الشـديد للفكـر الشـيوعي، وبالتـالي أراد الانتقـام بكشـف الأسرار العسـكرية للنظـام السـوفيتي السـابق ونقلهـا للولايـات المتحـدة.

وينقـل الكتـاب روايـة لأحـد ضبـاط الاتصـال مـن وكالـة الاسـتخبارات الأمريكيـة يقـول فيهـا: "كان تولكاتشـيف عازمـاً عـلى طـول الخـط عـلى إيقـاع أكـبر ضرر مُمكـن بالاتحـاد السـوفيتي السـابق بالرغـم مـن أيّـة مخاطـر قـد تحيـق بـه جـرّاء ذلـك، فقـد كانـت عقوبـة الخيانـة في عهـد الاتحـاد السـوفيتي السـابق هـي الإعـدام، إلا أن تولكاتشـيف لم يُـرِد المـوت عـلى أيـدي ضبـاط الاسـتخبارات السـوفييت، لـذا طلـب مـن وكالـة الاسـتخبارات الأمريكيـة تزويـده بحبّـة انتحـار ليسـتخدمها في حـال أوقعـت الاسـتخبارات السـوفيتية بـه".

ويذكُـر الكتـاب أن تولكاتشـيف، كان عميـلاً فريـداً مـن نوعـه، فهـو عمـل في عُمـق الجيـش السـوفيتي السـابق ولم يكـن عميـلاً تقليديـاً يسـتقي المعلومـات أو يشـتريها؛ حيـث اسـتطاعت الولايـات المتحـدة بفضلـه التعـرُّف إلى مواطـن ضعـف الـرادارات والدفاعـات الجويّـة السـوفيتية، فقـد ظـلّ يـزوّد واشـنطن بالمعلومـات بصـورة مُنتظمـة طـوال سـت سـنوات. ويسـتطرد، كانـت هنـاك طُـرق مُبتكـرة عملـت بهـا وكالـة الاسـتخبارات المركزيّـة لضـمان تواصـل آمـن وفعّـال مـع تولكاتشـيف، يقـول إنهـا نجحـت بفضـل تلـك الطُّـرق في لقائـه 21 مـرة في شـوارع موسـكو التـي كان ضبّـاط الاسـتخبارات السـوفيتية يُراقبونهـا ليـل نهـار.

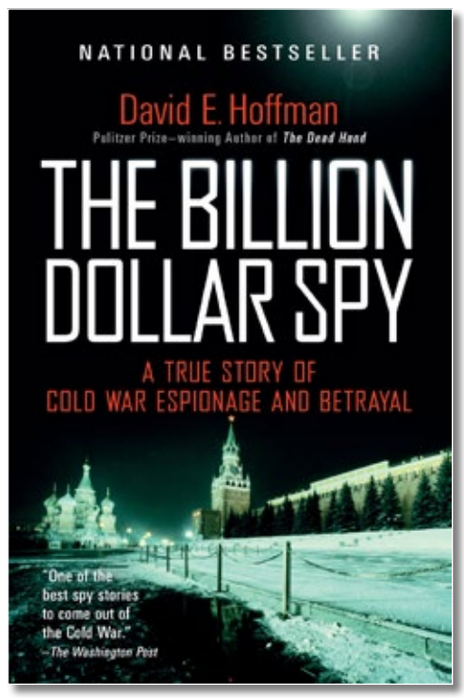

حيل في موسكو:

يـسرد الكتـاب حيلـة نُفّـذت في خريـف عـام 1982 عندمـا ركـب عميـلان لوكالـة الاسـتخبارات الأمريكيـة يعمـلان في سـفارتها بموسـكو، سـيارة برفقـة زوجتيهـما، جلسـت الزوجتـان في المقعـد الخلفـي وحملـت إحداهـنّ كعكـة عيـد ميـلاد، وتحرّكـت السـيارة وكالعـادة تبعتهـا سـيارة تابعـة لوكالـة الاسـتخبارات السـوفيتية. وفي أحـد المُنعطفـات، قفـز العميـل الـذي كان يجلـس إلى جانـب السـائق ووضعـت الزوجـة الكعكـة عـلى المقعـد ليتّضـح أن بداخلهـا جهـاز يُولّـد صُـورة ضوئيـة تُشـبه صـورة العميـل الـذي قفـز؛ فيبـدو للنّاظـر مـن خـارج السـيارة وكأن شـخصاً يجلـس عـلى المقعـد بصـورة طبيعيـة، أمّـا العميـل الـذي قفـز فقـد كان يرتـدي تحـت ملابسـه، ملابـس أخـرى رثـة، وسُرعـان مـا تحـوّل خـلال أقـل مـن دقيقـة مـن رجـل ببدلـة أنيقـة إلى عجـوز روسي فقـير يجـوب الطرقـات بحثـاً عـن لُقمـة يسُـد بهـا رمقـه. وخطـا العجـوز المُزيّـف أربـع خُطـوات عائـداً باتجـاه الشـارع، وفي الخُطـوة الخامسـة مـرت أمامـه سـيارة وكالـة الاسـتخبارات السـوفيتية التـي كانـت تُراقـب مـن بعيـد؛ فلـم يكترثـوا لـه وتابعـت مُلاحقتهـا للسـيارة التـي خرجـت مـن السـفارة الأمريكيّـة، أمـا العجـوز فتابـع طريقـه ليلتقـي تولكاتشـيف، العميـل الـذي يُسـاوي مليـار دولار، عـلى حـد وصـف الكتـاب.

وطبقـاً للكتـاب، فقـد قـدّرت القـوات الجويـة الأمريكيـة أن الأمـوال التـي وفّرتهـا بفضـل خدمـات تولكاتشـيف، ومعلوماتـه بلغـت نحـو مليـاري دولار، ولـولاه لكانـت تلـك الأمـوال وأكـثر منهـا قـد أُنفقـت عـلى أبحـاث عسـكرية وعلميـة لمواجهـة التقـدُّم العسـكري السـوفيتي. وعـلى الرغـم مـن طلـب تولكاتشـيف، الدائـم للـمال مقابـل خدماتـه، فقـد كان يُـبرر ذلـك بـأن المـال هـو فقـط للشـعور بـأن خدماتـه مُقـدَّرة، حيـث لم يكـن هنـاك، مـن وجهـة نظـره، مـا يشـتريه في موسـكو إبـان الحكـم السـوفيتي، ولأجـل ذلـك كان يطلـب مـن ضبـاط الاتصـال بوكالـة الاسـتخبارات تزويـده بأسـطوانات موسـيقية غربيـة لأبنائـه.

ويـروي الكتـاب نهايـة تولكاتشـيف، بعدمـا تعـرض للخيانـة مـن قِبـل جاسـوس في وكالـة الاسـتخبارات الأمريكيـة، وتـم إعدامـه في عـام 1986.

الجاسوس والخائن:
أعظم قصة تجسس في الحرب الباردة

Ben Macintyre, The Spy and the Traitor: The Greatest Espionage Story of the Cold War, Crown, 2019.

من العمالة أُحادية الجانب ننتقل إلى العمالة المُزدوجة أثناء الحرب الباردة أيضاً، ولكن هذه المرّة من خلال كتاب بن ماكنتاير، حيث يحكي فيه قصة العميل المزدوج أوليغ جورديفسكي، التي يراها البعض ضرباً من ضروب الخيال والأدب الذي لا يحتاج فقط إلا لتحويله إلى مسلسل درامي على الرغم من أنها قصة حقيقية.

عميل مزدوج:

يشير ماكانتاير، إلى أن جورديفسكي، كان ضابطاً كبيراً في جهاز الاستخبارات السوفيتي (KGB)، والذي أرسله إلى لندن لجمع أسرار من دون أن يعرف أنه يعمل لمصلحة الاستخبارات الخارجية البريطانية (MI-6) أيضاً ولأكثر من عقد. وتبدأ القصة من عمود صغير لتوجيه حركة المرور في وسط لندن؛ هناك العشرات منه في أنحاء المدينة إلا أن هذا العمود المروري بالذات كان له دور كبير في إنهاء الحرب الباردة.

ففي 18 مايو 1985، أولى جورديفسكي، هذا العمود اهتماماً خاصاً، فقطعة من العلكة على رأس العمود كانت إشارة إلى تسليم 8 آلاف جنيه إسترليني إلى عميل سري في الاستخبارات السوفيتية. وكان الروس يحبون العمل الجاسوسي المحبوك للغاية، بحيث لو قرأت عنه في رواية معينة تظن أنه شديد التعقيد، وذلك اعتقاداً من رؤيتهم أن النشاط الجاسوسي كلّما ازداد تعقيداً، قلّت احتمالات اكتشافه.

ويحكي الكتاب بداية خيبة أمل جورديفسكي، من أصحاب العمل في عام 1968، عندما غزا الاتحاد السوفيتي السابق تشيكوسلوفاكيا لقمع انتفاضة هناك. وتمكّن جورديفسكي، من تقديم خدمات أثرت بصورة مادية في إنهاء الحرب الباردة، حيث أخبر الاستخبارات البريطانية بأن القادة السوفييت يُعانون من "جنون العظمة" بشأن الهجوم النووي، وأمروا الاستخبارات السوفيتية بمراقبة علامات على وجود هجوم نووي آخر وشيك. ويستطرد، عندما زار الزعيم السوفيتي السابق ميخائيل غورباتشوف، بريطانيا في عام 1984، كانت مهمته الرئيسية هو نُصحه بما يقوله حين يلتقي مارغريت تاتشر، رئيسة وزراء بريطانيا في ذلك الوقت، ولم يكن غورباتشوف، يعلم أن النصيحة كتبتها الاستخبارات البريطانية. هكذا كان جورديفسكي، يشير على الطرفين بما يقولانه إلى الآخر؛ الأمر الذي لم يحدث من قبل في التاريخ، بحسب ماكنتاير.

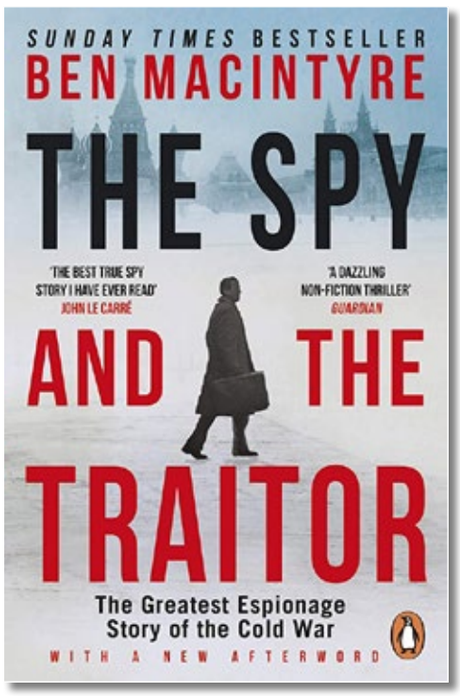

موقف موسكو:

أرسل ماكنتاير، كتابه إلى روسيا، لكنه لم يتلق رداً. وقال إن الكتاب لن يُعجبهم، فهم لديهم روايتهم الخاصة لهذه الواقعة، وهي أنهم كانوا يعرفون أن جورديفسكي، كان عميلاً مزدوجاً يتجسس لصالح الاستخبارات البريطانية، وبالتالي تعاملوا معه وهم يعرفون حقيقة ما يفعل. وبغض النظر عن الطرق الغريبة التي استخدمها جورديفسكي، مثل الكاميرات الخفية، وترك مظاريف من النقود في أماكن عامة ليلتقطها عملاء آخرون؛ فإن ماكنتاير، يصفه بأنه "من أشجع الرجال" الذين عرفهم، وكان الرجلان قد بدآ يلتقيان منذ سنوات في بيت آمن يسكنه جورديفسكي، منذ هروبه من موسكو في عام 1985.

ويقول ماكنتاير، إن الاستخبارات البريطانيّة شددت الإجراءات الأمنية لحماية جورديفسكي، بعد تسميم العميل المزدوج الآخَر سيرجي سكريبال، وابنته. ويُشير إلى أن ردة فعل جورديفسكي، على واقعة تسميم سكريبال، كانت عدم الاكتراث واللامُبالاة. وعلى الرغم من حالة عدم الاكتراث التي أصابت جورديفسكي، فإنه توقع حدوث زيادة كبيرة في نشاط التجسس الروسي في بريطانيا، وأنه يعتقد أن عدد جواسيس روسيا الذين يعملون حالياً في بريطانيا أكثر من عددهم خلال فترة الحرب الباردة، ولاسيما أنهم يستطيعون الآن دخول بريطانيا بسهولة أكثر من أي وقت مضى.

أفضلية لندن:

يُشير ماكنتاير، إلى أنه عندما تم كشف جورديفسكي، كعميل مزدوج لكل من الاستخبارات السوفيتية والبريطانية، كان وقع ذلك شديد الوطأة على عائلته بصورة مأساوية، فزوجته لم تكن تعرف أنه يتجسس على الاستخبارات السوفيتية التي كان والدها يعمل فيها، وأُصيبت بصدمة كبيرة حين علمت بعمالته لصالح بريطانية، وسُرعان ما انهار زواجهما بعد ذلك. ويختم الكتاب بالقول إن "جورديفسكي لم يكشِف ما كان يجري في الكرملين فحسب، بل كان يعرف ما يُفكر الكرملين بأن يفعله، وهذا منح الاستخبارات البريطانية أفضلية وميزة نسبية كبيرة في ذلك الوقت".

محاربو الشفرة:
مخترقو الشفرة في وكالة الأمن القومي الأمريكية وحرب الاستخبارات السرية ضد الاتحاد السوفيتي

Stephen Budiansky, Code Warriors: NSA's Codebreakers and the Secret Intelligence War Against the Soviet Union, Knopf, 2016.

بينما تناول الكتابان السابقان لكل من ديفيد هوفمان، وبن ماكنتاير، الذكاء البشري وقدرته على إنجاح العمليات الاستخباراتية التقليدية المعتمدة على زرع خلايا بشرية من أجل الحصول على قدر مُحدد من البيانات والمعلومات والأفكار المُتداولة في الجلسات المُغلقة، فإن وكالة الاستخبارات المركزيّة الأمريكية (CIA) وجهاز الاستخبارات البريطاني (MI-6) وجدا نفسيهما أمام نوع آخر من الذكاء ألا هو والذكاء الاصطناعي المعتمد بصفة أساسية على الإشارات واعتراض الرسائل وفك رموزها بطريقة آلية تفوق فاعليتها الخلايا البشرية التقليدية في مثل هذه المهام.

وفي هذا الإطار، يُسلّط ستيفن بوديانسكي، الضوء من خلال كتابه على مثل هذا النوع المتطور من الآليات المستخدمة في أجهزة الاستخبارات، ويوثق لعمل وكالة الأمن القومي الأمريكية (NSA) خلال فترة الحرب الباردة بما اكتنفه من نجاحات وإخفاقات.

فك الشفرات:

يتحدث بوديانسكي، عن كيفية نشأة وكالة الأمن القومي الأمريكية من جذور الحرب العالمية الثانية، مروراً بسقوط حائط برلين والأحداث التي ترافقت مع ذلك الحدث وتلته، ويُبيّن التحديات التي واجهها خبراء تحليل الشفرة وكيف تمكّنوا من فك بعض أكثر الشفرات تعقيداً في القرن العشرين. ومن خلال اطّلاعه على وثائق رُفعت عنها السرية، يوضح نجاحات وإخفاقات وكالة الأمن القومي الأمريكية خلال الحرب الباردة، كما يُقدم تقييماً مفصلاً لمُجمل الجهود المبذولة من قِبلها، خاصة في ضوء ما كشفه عميل الاستخبارات الأمريكية إدوارد سنودن، عن نشاطات أجهزة الاستخبارات الأمريكية.

وقد نشأت وكالة الأمن القومي الأمريكية من رحم برامج فك الشفرة خلال الحرب العالمية الثانية التي حلّت أسرار "آلة اللُّغز" "Enigma" الألمانية الشهيرة، إلى جانب باقي الشفرات الألمانية واليابانية، وساعدت بذلك على تحقيق انتصار الحُلفاء في تلك الحرب. وخلال السنوات التالية، أوجدت الولايات المتحدة لنفسها عدواً جديداً يتمثل في الاتحاد السوفيتي السابق، ووجدت الاستخبارات الغربية نفسها تستهدف أشخاصاً يُشتبه في أنهم جواسيس، وقادة أجانب، وحتى مواطنين أمريكيين وغربيين في بعض الأحيان، وذلك بدلاً من استهداف عسكريين ومُقاتلين في ساحة القتال. وخلال النصف الثاني من القرن العشرين، أدت وكالة الأمن القومي الأمريكية دوراً مهماً ومثيراً للجدل في بعض الأحيان في معظم أحداث الحرب الباردة، بدءاً من الحرب الكورية وحتى أزمة الصواريخ الكوبية، وانتهاءً بحرب فيتنام.

مزيج بشري وتكنولوجي:

يُقدم بوديانسكي، عرضاً مُفصلاً للجهود المبذولة من قِبل وكالة الأمن القومي الأمريكية لاكتشاف أسرار الاتحاد السوفيتي السابق، ويتحدث عن دور شبكة تحليل الإشارات في الوكالة الأمريكية في المساعدة على الحد من

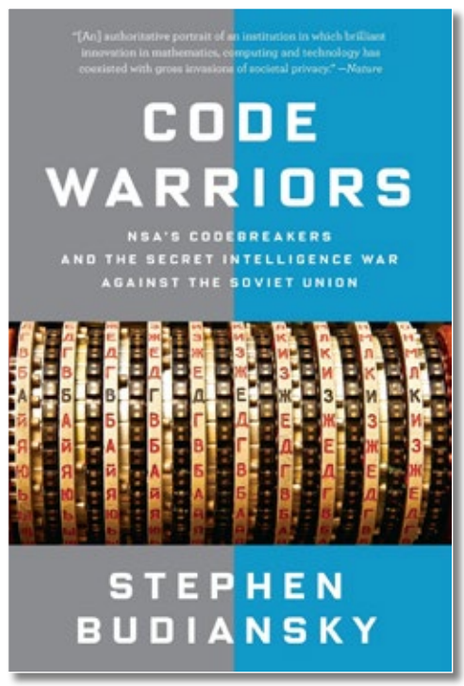

خطر نشوب حرب نووية، والسماح بنجاح سياسة الاحتواء، وذلك من خلال مساعدة عملاء على الأرض والاستفادة من التكنولوجيا المتطورة المتاحة في ذلك الوقت. وبهذه التركيبة بين العُنصرين البشري والتكنولوجي، تمكنت وكالة الأمن القومي الأمريكية من اعتراض الاتصالات السوفيتية، ومن ثم الحصول على قدر وافر من الأفكار التي لا تزال تجول في مُخيّلة القادة السوفييت، ومنهم الزعيم الراحل ليونيد بريجنيف، وهو ما ساعد كثيراً هنري كيسنجر، في التفوق على مائدة المفاوضات على السوفييت حول الحد من الأسلحة الاستراتيجية في أواخر ستينيات وبداية سبعينيات القرن الماضي.

وأظهر بوديانسكي، هوس الوكالة الأمريكية بتوثيق كل جزئية من البيانات التي تحصل عليها وفك وتحليل كل إشارة لاسلكية أو إلكترونية. وضم في كتابه مجموعة من الملاحق التي تشرح التفاصيل التقنية للشفرات السوفيتية وكيف فكت وفهمت أسرارها.

وتدور الكثير من الوقائع في الكتاب حول تحليل التشفير وقراءة الرسائل المُشفرة التي قد تستغرق عقوداً، حيث استمر برنامج "VENONA" في اعتراض ما يزيد عن 3 آلاف رسالة سوفيتية تم إرسالها بين عامي 1943 و1945، حتى عام 1980. ولم يتم رفع السرية عن تلك الرسائل حتى عام 1995. ويؤكد بوديانسكي، أنه على الرغم من صعوبة مهام فك التشفير وكُلفتها الأعلى من الاعتماد على العنصر البشري في الوسائل الاستخباراتية التقليدية، فإنها مثّلت بديلاً مثالياً بعدما لقي أكثر من 90 عميلاً مصرعهم خلال الحرب الباردة في رحلات جوية حول الحدود السوفيتية لجمع المعلومات الاستخباراتية الإلكترونية. ففي عام 1979، أسفر مزيج من التطور البشري والتكنولوجي معاً، بفضل الاعتماد على الحواسيب العملاقة "Super Computer"، عن اختراق شفرات سوفيتية، بعض تفاصيلها لا تزال سرية حتى وقتنا الحالي. ولكن ما صار يقينياً في الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي هو بدء مرحلة جديدة أسماها الكتاب "هجرة جماعية" نحو أجهزة الحاسوب والشبكات الرقمية وفي النهاية إلى الإنترنت، وبدء حقبة تكنولوجية جديدة أكثر جدلاً وإثارة من سابقتها، بالنظر لقدرتها الفائقة على الوصول لأدق تفاصيل ما يجري في العالم.

منع المخاطر:

يذكر بوديانسكي، في كتابه أن صراع علم تحليل الشّفرات كان غامضاً من الناحية الأخلاقية مثل أشياء عديدة تخص مرحلة الحرب الباردة، مُشيداً بتجربة وكالة الأمن القومي الأمريكية في التعامل مع الصراعات والمواجهات واستراتيجيات الحروب المحدودة في وجه أُفق حرب نووية وشيكة في تلك اللحظة. وحسب قوله، لم تكن غالبية الشعب الأمريكي قادرة على قبول الأخطار الحقيقية التي كانت "السياسة الشيوعية الإمبريالية" تُمثّلها على العالم، كما أن الاستخبارات والمؤسسة العسكرية السوفيتية كانت تتمتع بنفوذ على صناع السياسة السوفيتية أكبر بكثير من نفوذ المجتمع الاستخباراتي في الولايات المُتحدة.

المِرآة المُظلمة:
إدوارد سنودن ودولة المراقبة الأمريكية

Barton Gellman, Dark Mirror: Edward Snowden and the American Surveillance State, Penguin Press, 2020.

تتواصل لعبة الكر والفر بين روسيا والغرب، فبعدما ناقشت الكتب الثلاثة السابقة الدور الاستخباراتي الأمريكي والبريطاني في اختراق الاتحاد السوفيتي السابق بطرق تقليدية ومتطورة على حد سواء طوال فترة الحرب الباردة، يأتي كتاب بارتون جيلمان، ليُسلط الضوء على الجزء الآخر من الرواية، وهو اختراق وكالة الأمن القومي الأمريكية، أهم جهاز استخباراتي أمريكي لفك الرموز والشّفرات والإشارات واستخدام التكنولوجيا الحديثة بصفة عامة، والإفصاح عن كم هائل من المعلومات والوثائق عن طريق إدوارد سنودن، الذي فرَّ هارباً إلى روسيا عبر هونغ كونغ بعدما كان يعمل بوكالة الأمن القومي الأمريكية، وكشف للعالم أن هذه الوكالة ونظيرتها البريطانية كانتا تتجسسان على شبكة الإنترنت على نطاق واسع من خلال الكابلات الموجودة تحت سطح البحر، واستغلال الأبواب الخلفية القانونية من قبل وحدات تحكُّم (Servers) شركات التكنولوجيا الأمريكية، وإدخال نقاط ضعف يسهل من خلالها اختراق الداخل الأمريكي والخارج على حد سواء.

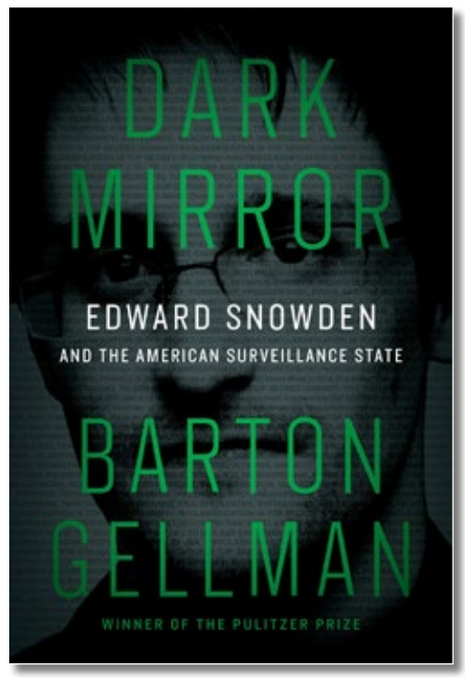

وتبدأ القصة من يناير 2013، عندما التقت مُخرجة الأفلام الوثائقية لورا بويتراس، وهي مُراسلة سابقة في صحيفة "واشنطن بوست" الأمريكية، بارتون جيلمان، في نيويورك وأخبرته أثناء اللقاء أنه قبل أيام قليلة كان هناك مصدر غامض يتصل بها، حيث ادّعى المُتّصل أنه عميل سري أمريكي، وكان لديه أخبار عديدة لإثبات مصداقيته. بعدها، أجرى جيلمان، سلسلة من المُحادثات المُشفّرة مع هذا العميل السري، والذي كان اسمه الرمزي "فيراكس". ويسرد جيلمان، في كتابه مُجمل تفاعلاته مع سنودن، منذ هذه اللحظة، وهي سلسلة ممتدة من التفاعلات تكشف كماً هائلاً من الاختراق ليس فقط تجاه مواطني الولايات المتحدة ولكن تجاه دول أخرى عن طريق الإنترنت.

متابعة استقصائية:

تمسّك جيلمان بالخيط الذي أمدّه به سنودن، في عام 2013، وظل 7 سنوات في عملية تتبُّع لحالة المراقبة الأمريكية، للتفريق بين الواقع والخيال. واستقصى الآليات المتبعة في وكالة الأمن القومي الأمريكية وما يكتنف عملها من ألغاز ومُعضلات، فضلاً عن مواجهته طوال رحلته لخصوم مجهولين حاولوا إجباره، على حد وصفه، على التوقف وعدم المُضيّ قُدماً في فتح هذا الملف، خاصة بعدما كشف عن وثائق أصلية نشرتها صحيفتا "الغارديان" البريطانية و"واشنطن بوست"، ظهر فيها أن وكالة الأمن القومي الأمريكية تدّعي الوصول إلى الأبواب الخلفية لوحدات تحكُّم "Google" ومنصات التواصل الاجتماعي، وتحتفظ بسجلات الهواتف وما تحويه من خصوصية.

وينتقد الكتاب بشدة فكرة التجسُّس المُوجّهة إلى الداخل، ويستهجن الداعي وراء ذلك، وصولاً إلى مرحلة الجمع العشوائي للمعلومات وتتبُّع الأشخاص بلا هدف. وعلى الرغم من وجود خلاف في الأفكار وأيضاً في التوجّهات بين سنودن وجيلمان، فإنهما متفقان على ضرورة الكشف عن أبعد نقطة ممكنة من هذا الاختراق الحكومي الذي يجري تجاه الجميع دون استثناء.

وكان جيلمان، قد غادر صحيفة "واشنطن بوست" في عام 2010، وطوال رحلته الكشفية، كان يطلب من زملائه التخلُّص من هواتفهم المحمولة لتفويت الفرصة أمام عمليات الاختراق، وكان يتفاعل معه البعض منهم حتى ولو لم يُعلن بعد جميع أبعاد ما توصل إليه. وكان طريق جيلمان، محفوفاً بالمخاطر بعكس سنودن، الذي هرب إلى روسيا، ورفض جيلمان، فكرة الخروج من الولايات المتحدة حتى وهو يشعر بمزيد من الخوف من الاعتقال والملاحقة القضائيّة.

ضغوط أمريكية:

كان جيلمان، قد صرّح بأن هناك ضغوطاً متزايدة عليه أثناء فترة الرئيس الأمريكي الأسبق، باراك أوباما، ومنها محاولة شخص ما اختراق هاتفه (iPhone) وأجهزة الحاسوب المحمولة الخاصة به، حتى إنه اشترى خزنة لشقته في نيويورك وصار يتخذ تدابير عديدة في مختلف تحركاته في الأماكن العامة. ويُشير الكتاب إلى أن أجهزة استخبارات أجنبية كانت تسعى للحصول على تسريبات جيلمان، ومن ورائه تسريبات ووثائق سنودن.

ويوضح الكتاب أن وتيرة الضغوط قد خفّت كثيراً أثناء ولاية الرئيس السابق، دونالد ترامب، وإعلانه الحرب على الحرس القديم في مؤسسات الدولة الأمريكية كافة، وعلى رأسها وكالات الاستخبارات والأجهزة السيادية.

ويعزو الكتاب هذا النهم من التوسُّع في تتبُّع الأفراد داخل وخارج الولايات المتحدة، إلى المخاوف التي صاحبت أحداث 11 سبتمبر 2001 وأسهمت في تعديل وتغيير العديد من السياسات، وصولاً ببعضها إلى المستوى الأقصى من حيث الحيطة والحذر، وهو ما رأى فيه جيلمان، فرصة سانحة لإظهاره للرأي العام والإسهام في ضرورة خفض هذا السقف وإعادته للمستوى المقبول والمُقنّن والمُوجّه بصورة سليمة لأشخاص معينين في سياقات محددة، وليس لكل الأشخاص وفي السياقات الداخلية والخارجية على حد سواء.

بطل أم خائن؟

لم يُعلن جيلمان، موقفاً سلبياً ولا إيجابياً تجاه سنودن، حيث لم يره بطلاً ولا خائناً؛ فهو اتفق معه في جوانب منها ضرورة الكشف عن الخروقات التي تقوم بها وكالة الأمن القومي الأمريكية تجاه مواطني الولايات المتحدة، واختلف معه في علاقته بمن أسماهم "خصوم واشنطن"، وأيضاً الخروج وعدم مواصلة هذه المهمة من داخل الولايات المتحدة. وتبقى فكرة "الإضرار بالأمن القومي الأمريكي" هي موضع الخلاف الرئيسي مع ما قام به سنودن، فهل رآه جيلمان من قبيل الإضرار بالأمن القومي الأمريكي أم أن ما قام به يصب في صالح المصلحة العليا للبلاد؟

كتاب مختلف:

لا يُعد كتاب جيلمان، الأول من نوعه، حيث قام غلين غرينوالد ولوك هاردينغ، الصحفيان اللذان عملا مع سنودن، في وقت سابق، بنشر مذكراتهما كما فعل سنودن، لكن يبقى كتاب "المِرآة المُظلمة" لـجيلمان، وصفاً وتحليلاً لما قام به سنودن ولمُجمل التفاعلات التي تمت طوال سنوات سبع بعد أن قام سنودن، بقص شريط هذه القضية. فهو الكتاب الأبرز من بين ما نُشر حتى الآن عن دور الاستخبارات الأمريكية في التجسُّس على مواطنيها ومواطني الدول الأخرى بواسطة الإنترنت والتقنيات الحديثة. ولهذا السبب حصل جيلمان، على جائزة "بوليتزر" ثلاث مرات لإسهامه الكبير في الدفاع عن الأُطر العليا التي تضع الحريات الشخصية للأفراد في منزلة شبه مُقدسة.

جواسيس وأكاذيب:
كيف خدعت أعظم عمليات الصين السرية العالم؟

Alex Joske, Spies and Lies: How China's Greatest Covert Operations Fooled the World, Hardie Grant, 2022.

واحد من أهم الكتب التي ركّزت على أنشطة وزارة أمن الدولة الصينية (MSS) باعتبارها الذراع الاستخباراتي الرئيسي لبكين، هو هذا الكتاب لأليكس جوسكي. ويستند الكتاب إلى بحث مُعمّق لما استطاع أن يصل إليه من مواد مفتوحة المصدر وشبكات التواصل الاجتماعي الصينية، وذلك باعتبار أن هذه الوزارة، من وجهة نظر جوسكي، هي الأقل معرفةً والأكثر غموضاً في العصر الحديث.

أسلحة سحرية:

يستخدم جوسكي، المحلل السابق في معهد السياسة الاستراتيجية الأسترالي، وهو صيني الجنسية ويحمل أيضاً الجنسية الأسترالية، مصادر باللغة الصينية لتتبُّع التاريخ والكشف عن طريقة عمل وزارة أمن الدولة الصينيّة، فهو يُركز بشكل أقل على التجسُّس منه على العمليات المُصمَّمة للتأثير في الرأي العام والنُّخبة لصالح الحزب الشيوعي الصيني.

وكان كين ماكالوم، الذي شغل رئيس جهاز الاستخبارات الداخلية البريطاني (MI5)، قد صرّح في هذا الإطار، في نوفمبر 2022، قائلاً: "نرى السلطات الصينية تلعب على تنمية الاتصالات للتلاعب بالرأي العام لصالحها. إنها تسعى إلى التأثير ليس فقط في البرلمانيين البارزين ولكن في الناس في وقت مُبكّر للغاية". ويبني جوسكي، على تصريح ماكالوم، بأن الصين لم تُرِد فقط التأثير في الرأي العام وصولاً إلى مستوى التأثير في الأفراد العاديين، وإنما أيضاً استخدمت هؤلاء لنشر فكرة غير قابلة للتصديق بشكل مُتزايد، على حد قوله، بأن هدف بكين كان تحقيق "الصعود السلمي" الذي لا يُشكّل أي تهديد للغرب أو لجيرانها مثل اليابان والهند.

وهذا التوجس تجاه ما تقوم به الصين، يتم إرجاعه لانتصار الحزب الشيوعي الصيني على منافسه الحزب القومي من خلال استخدام استراتيجية ماو تسي تونغ، زعيم الثورة الصينية ومؤسّس الجمهورية الصينية الشعبية، المُتمثلة في "أسلحة سحرية ثلاثة"؛ هي الحفاظ على حزب قوي، وكسب النضالات المُسلحة، والانخراط في عمليات الجبهة المُتحدة للتسلل والاستيلاء على المنافسين. واليوم، يُرى أن الرئيس شي جين بينغ، الأمين العام للحزب الشيوعي الصيني، يستخدم نفس الاستراتيجية الثلاثية التي استخدمها ماو، في السابق من أجل تعزيز الهيمنة الجيوسياسية، على حد قوله، وذلك لوجود دلائل مُتمثلة في تحديث جيش التحرير الشعبي، وتعزيز دور الحزب الشيوعي في الحياة السياسية والاقتصادية للصين، فضلاً عن إعادة تنشيط نظام الجبهة المُتحدة في تعاملها مع حلفائها وخصومها.

جدلية "الصعود السلمي":

يرى جوسكي، أن سياسة الصين تستهدف مباشرة تخفيف الاستجابات الغربية جرّاء صعودها العالمي السريع، وما ساعدها على ذلك هو

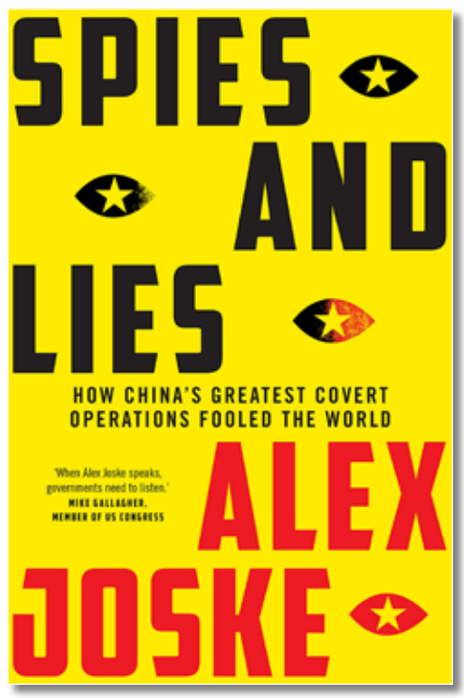

تصنيف الولايات المتحدة مكافحة انتشار الأسلحة النووية ومحاربة الإرهاب كأبرز أولوياتها بعد أحداث 11 سبتمبر 2001، حيث رأت بكين شريكاً مفيداً ومن ثم أفسحت لها المجال، إلى الحد الذي وصلت إليه الصين حالياً بالمنافسة الشرسة للولايات المتحدة في المجالات الاقتصادية والسياسية.

وينقل جوسكي، تخوّفه في الكتاب من أن تتحول الصين لقوة مُدمّرة لا تُنافس فقط على حيازة مكانة رفيعة في النظام الدولي، ولكن تُنافس أيضاً جدياً على صدارة العالم وفرض نموذجها بعد أن يكون لها الغلبة في الناحيتين الاقتصادية والسياسية. وما يُعضّد الجانب الأول في تخوّف جوسكي، هو توقّع البنك الدولي أن يكون حجم الاقتصاد الصيني بعد عدة أعوام قليلة في 2030 هو الاقتصاد الأول عالمياً بعد وصوله حالياً إلى المرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة.

ويدّعي جوسكي، أن وزارة أمن الدولة الصينية تستخدم من أجل ذلك، سياسة هادئة مبنية على المزيد من الصبر، والعمل عن كثب لتحقيق أهداف أخرى غير مُعلنة، بما في ذلك صياغة الوزارة من خلال إحدى المؤسسات السياسية التابعة لها لمُصطلح "الصعود السلمي" الذي أصبح رائجاً وبصورة إيجابية في دوائر صُنع السياسات الأمريكية والعالم بصفة عامة منذ 2003، بحيث تستطيع بكين لاحقاً أن تنسب أياً مما تقوم به من أنشطة داخلية أو خارجية في شكل توظيف واجهات ثقافية مثل مُنتدى الإصلاح الصيني وغيره، إلى هذا المسار السلمي الذي يدرأ عنها سهام النقد أو التشكيك في النيات.

تلاعُب أم تمدد طبيعي؟

يجزم جوسكي، بأن ما تقوم به الصين من خلال ذراعها الاستخباراتي الرئيسي (وزارة أمن الدولة)، لا يُعد تمدداً طبيعياً لحدود الدور الصيني في النظام الدولي، وإنما هو من قبيل التلاعب، على حد قوله، واستمرار سياسة الحزب الشيوعي الصيني وإرثه الاستراتيجي باعتباره "تمرُّداً لا يرحم أحداً في الداخل أو الخارج"، على حد وصفه. فكما أطاح الحزب الشيوعي بحليف الولايات المتحدة سابقاً، فإنه سيطيح بما يستطيع في المستقبل، بما في ذلك الأصدقاء.

وقد تصور جوسكي، أن تُقدّم بكين فعلياً على الأرض عرضاً للغرب حتى ولو لم تُفصح عنه صراحةً، تقول فيه: "تأكد من عدم استفزازنا ولا سعينا لتحديك، ففي الوقت الحالي لا نزال ننمو ونتقدم للأمام، لكن ما سننجزه سيعادل ويتجاوز إنجازاتك قريباً. تخلّى عن دعم تايوان، وانس حقوق الإنسان العالمية، وتنازل عن سيادتك، وامنحنا السيطرة على الصناعات والتقنيات الاستراتيجية، وفي المُقابل، قد يُسمَح لك بمكان في القرن المُقبل.. إذا كُنّا لا نزال نشعر تجاهك بالرضا"، على حد تصور الكاتب.

التدابير النشطة:
التاريخ السري للمعلومات المُضللة والحرب السياسية

Thomas Rid, Active Measures: The Secret History of Disinformation and Political Warfare, Farrar, Straus and Giroux, New York, 2020.

أظهر أليكس جوسكي، في كتابه السابق الإشارة إليه "جواسيس وأكاذيب"، أن المعلومات الاستخباراتية لا تتعلق فقط بمعرفة الأسرار وانتهاك الخصوصية، وإنما أيضاً بتغيير طريقة تفكير الناس وإمكانية تشكيل الرأي العام بناءً عليها. وربما أهم عملية استخباراتية في هذا الإطار خلال العقد الماضي كانت الاتهامات التي وجهت لروسيا بالتدخل في الانتخابات الأمريكية عام 2016، وأنها اخترقت وسربت رسائل البريد الإلكتروني لزعيم الحزب الديمقراطي آنذاك، واستخدمت شبكة من المتعاونين للتأثير في وسائل التواصل الاجتماعي الأمريكية. وهنا يظهر توماس ريد، الأستاذ بجامعة جونز هوبكنز بواشنطن العاصمة.

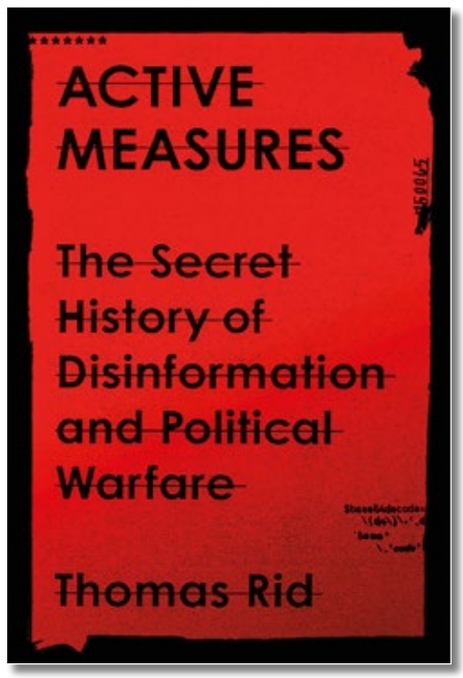

ويُمسك توماس ريد، الخيط الذي نسجه جوسكي، ويبني عليه في كتابه "التدابير النشطة: التاريخ السري للمعلومات المضللة والحرب السياسية". ويروي كتابه قصّة حول كيفية إرسال وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكيّة (CIA) "مُثيري متاعب" لإرباك جهاز الاستخبارات الشيوعي في ألمانيا الشرقية، وطرح آلاف البالونات المليئة بالدعاية في البلاد. وكل ذلك تضاءل أمام "الجهود الإبداعية" لجهاز الاستخبارات السوفيتي، على حد قوله، فبحلول مُنتصف الستينيات كان الاتحاد السوفيتي السابق يُنسّق ما بين 300 إلى 400 من "التدابير الفعّالة" بدءاً من تشجيع حركة السلام الأوروبية وصولاً إلى نشر الادّعاءات بأن الولايات المتحدة قد خلقت الإيدز كسلاح.

ويستطرد ريد، أنه في عام 1985 تمّ تقدير الميزانية السنوية "للتدابير الفعّالة" بـ3 مليارات إلى 4 مليارات دولار (أكثر من 8 مليارات دولار بقيمة ذات العُملة اليوم)، وهنا ربما يكون الدرس الأكثر أهمية هو أن الديمقراطيات مُعرّضة بشكل مُتزايد لهذا النوع من حرب المعلومات. وينقل ريد، عن رئيس قطاع المعلومات المُضللة في الاستخبارات السوفيتية تصريحاً له عام 1964 قال فيه: "إذا لم يكُن لديهم حُرية الصحافة؛ فسنضطّر إلى اختراعها لهم".

خرق روسي:

يعتقد توماس ريد، أن "تدابير فعّالة" مصدرها موسكو وسان بطرسبرغ، أسهمت بدرجة ما في وصول الرئيس الأمريكي السابق دونالد ترامب، لكرسي الحكم، ويُدلّل على ذلك بأنه وبعد أقل من شهر واحد من تولّي ترامب منصبه؛ أُطيح بمُستشار الأمن القومي مايكل فلين، لكذبه على نائب الرئيس بشأن محادثة مع السفير الروسي. كل ذلك كان مقدمة لإقالة مدير مكتب التحقيقات الفدرالي جيمس كومي، والدخول في سنوات من الاضطّراب. ويعقّب، نجح الكرملين في تجاوز أعنف أحلامه.

خبرة سابقة:

يقول ريد، إنه في السابق كانت هناك عمليات استخباراتية شبه سرية أو سرية لتشكيل القرارات السياسية للخصم، فهي تُخفي المصدر أو تُزيّفه دائماً كقاعدة. وبالتالي فهي عمليات تُجريها أجهزة الأمن الروسية وتهدف من خلالها إلى التأثير في مسار الشؤون الدولية، ويجري ذلك باستخدام التكنولوجيا والقرصنة، وإظهار صورة غير مُتكافئة للحرب الحديثة.

ويعود ريد، إلى السنوات الأولى لروسيا الشيوعية، ويروي جهود الحكومة آنذاك لتشويه سُمعة بقايا النظام القديم، حيث دبّرت الشرطة السرية - على حد وصفه - مؤامرة تضمّنت مراسلات مزورة ومنظمة وهمية ومجلساً مزيفاً مضاداً للثورة. ويُضيف، في عام 1960 شرعت الاستخبارات السوفيتية في سلسلة من عمليات التّضليل والتشويه التي تزكي "العِرق" والتي تضمنت إرسال منشورات (Ku Klux Klan" (KKK" بالبريد إلى الوفود الإفريقية والآسيوية لدى الأمم المتحدة عشية مُناقشة حول الاستعمار، في الوقت نفسه تظاهرت مجموعة ادّعت أنها منظمة أمريكية من أصل إفريقي تُحرّض على "Ku Klux Klan". وفي عام 1964 وبمساعدة سوفيتية، شنّت الاستخبارات التشيكية "عملية نيبتون" وغرقت وثائق النازية في زمن الحرب في قاع البحيرة السوداء بالقرب من الحدود الألمانية. ثم تم اكتشاف المخبأ بعد أربع سنوات، بعدها تلا ذلك هرج ومرج كبير، وانشق العقل المُدبّر لهذا المُخطط، لاديسلاف بيتمان.

ويُتابع الكاتب، قبل عام 2016 كان الشغل الشاغل لروسيا هو ترويج كذبة "الإيدز.. صُنع في الولايات المتحدة" رداً على التقارير الأمريكية التي تحدثت عن الاستخدام السوفيتي للأسلحة الكيميائية في أفغانستان. وأطلقت الاستخبارات السوفيتية "عملية دنفر"؛ وهي حملة مُتعددة المنصات زعمت أن الإيدز كان سلاحاً بيولوجياً أمريكياً تم تطويره في فورت ديتريك بولاية ميريلاند، وكان محور هذا الجهد هو النشر السابق لرسالة مجهولة من صحيفة هندية في نيويورك، زعمت الرسالة المُضلّلة أن "الإيدز قد يغزو الهند؛ إنه مرض غامض سبّبته التجارب المعملية الأمريكية".

وكتب ريد، أن هذه الرسالة كانت "عملية تضليل تم تنفيذها ببراعة، فهي مزيج من 20% تزوير بالفعل، و80% حقيقة. فقد كانت الحقيقة تقول إن "البنتاغون" ووكالة الاستخبارات المركزية قد اختبرا أنواعاً جديدة من الأسلحة البيولوجية في مناطق مكتظة بالسُّكان في الولايات المتحدة وكندا، وأجريا أبحاثاً حول الأمراض والمؤثرات العقلية. ليس هذا فحسب، فقد ضاعفت الاستخبارات الروسية من نشر نُسخة معاد صياغتها من قصة أن الإيدز كان نتيجة مُحتملة لحرب البكتيريا الأمريكية، وبالتالي ساعد كل ذلك على تلويث السُّمعة والثقة الأمريكية.

ويختم ريد، كتابه بالإشارة إلى أنه على الرغم من "التدابير الفعّالة أو النشطة" التي اعتادت روسيا على نشرها في مختلف المناسبات والظروف، فإنها لم تستطع أن تُرجح كفة انتخابات 2016 للجمهوريين بالكونغرس، فقد كان لمكتب التحقيقات الفدرالي تأثير أكبر هنا.

جواسيس وأكاذيب وخوارزميّات:
تاريخ الاستخبارات الأمريكية ومُستقبلها

Amy B. Zegart, Spies, Lies, and Algorithms: The History and Future of American Intelligence, Princeton University Press, New Jersey, 2022.

تُسلّط إيمي زيجارت، في كتابها "جواسيس وأكاذيب وخوارزميّات" الضوء على أحد أهم المتغيّرات الحديثة، ألا وهو "الاستخبارات مفتوحة المصدر" (OSINT). وتضرب مثالاً بالتقاط صور لحشد روسيا للقوات العسكرية على الحدود الأوكرانيّة في خريف وشتاء عام 2021 بتفاصيل غير مسبوقة من خلال صور الأقمار الاصطناعية التجارية ومقاطع الفيديو المنشورة على منصة "TikTok"، مشيرة إلى أن تنامي آلية كهذه مع التقدُّم الهائل في الذكاء الاصطناعي ووسائل التعرُّف إلى الوجه والقياسات الحيوية، جعل من المستحيل تقريباً على ضباط الاستخبارات عبور الحدود بأسماء مُستعارة كما فعلوا خلال حقبة العميل المزدوج أوليغ جورديفسكي، في فترة الحرب الباردة. ومن ثم ترى أن تقنية "التزييف العميق" ستُعزّز نوع المعلومات المُضلّلة التي كرّس توماس ريد، جهده في توثيقها.

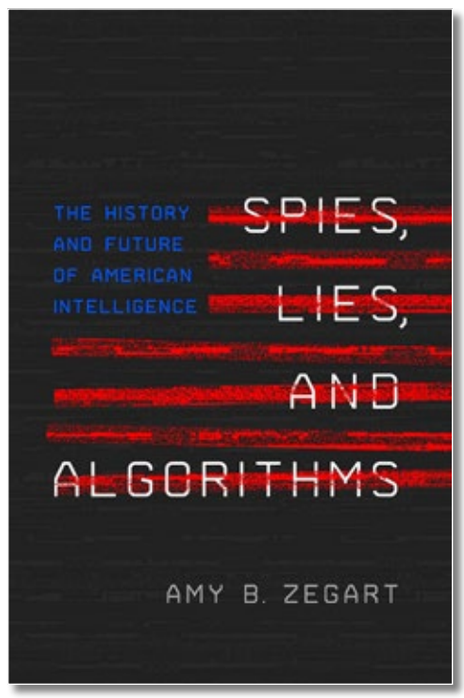

وتنتقد زيجارت، عدم مواكبة أحدث الأُطُر المُستخدمة في الاستخبارات، وتقول إن وكالات التجسُّس يجب عليها مواكبة العصر، وينبغي كذلك للحكومات أن تعي ذلك وتعكسه في أنشطتها.

تذكير بالفشل:

تشير زيجارت، إلى أنه عندما كانت تعيش في شمال شرق الصين، في الثمانينيات، كانت تزور جسراً قديماً للسكك الحديديّة يمتد على نهر يالو بين مدينة داندونغ الصينية وسينويجو؛ وهي بلدة في كوريا الشمالية. وخلال ما يُسمّيه الصينيون "حرب تحرير الوطن العظيم" وما يُسمى "الحرب الكورية" خلافاً للتسمية الأولى؛ فجّرت القاذفات الأمريكية هذا الجسر، وعلى مدى عقود احتفظت به السلطات الصينية تماماً على وضعه الحالي من المعدن الملتوي والخرسانة المتداعية.

ورأت زيجارت، أن "الجسر المكسور" لا يُمثل فقط تذكيراً مرئياً بـ"العدوان الأمريكي"، ولكنه أيضاً تذكير بالفشل الاستخباراتي الأمريكي الذريع، على حد وصفها، بعدما كان مسؤولو الاستخبارات الأمريكية على يقين من أن الصين لن تدخل الحرب أبداً، وكانوا مُخطئين، حيث عبر الجنود الصينيون النهر واتخذوا مواقع في كوريا في انتظار القوات التي تقودها الولايات المتحدة، وعندما بدأ القتال قصفت الطائرات الأمريكية جسر السكك الحديدية لمنع الصين من إرسال تعزيزات، لكنها كانت مُخطئة في ذلك أيضاً، حيث لم يكن الجنود الصينيون بحاجة إلى الجسر من الأساس، وساروا بالفعل عبر النهر المتجمد. والأدهى من ذلك أن الجنود الصينيين كانوا يختبئون من دون أن يتم اكتشافهم لمدة شهر. لذا كان وَقْع الحرب الكورية مُدمّراً؛ بسبب الأداء الاستخباراتي المُتردّي في ذلك الوقت.

خطأ بوتين:

وكأنّ الأجهزة الاستخباراتية لا تتعلم من أخطاء بعضها، تلفت زيجارت، النظر إلى استنساخ الرئيس الروسي فلاديمير بوتين، تجربة الجنرال الأمريكي ماك آرثر، بطل قصّة "الجسر المكسور"، ولكن هذه المرة في أوكرانيا.

وتقول زيجارت، إن هذا الافتقار إلى المنظور يؤدي إلى تصورات وحسابات خاطئة ومُميتة، حيث اعتقد بوتين أن القوات الروسية ستتدفق إلى أوكرانيا دون مقاومة، وأنهم سيُقابَلون في كييف والمدن الأوكرانية الكُبرى بالزهور، وسرعان ما سيُنصّب حكومة موالية لموسكو وتنتهي القصّة باعتبارها نزهة. بيد أن الواقع أثبت فشل تلك النظرة، بل والدخول في حلقة مُفرغة من الصراع ليس فقط مع أوكرانيا الآن، ولكن أيضاً مع الغرب بصورة أعم وأشمل.

مُعطيات جديدة:

تؤكد زيجارت، أن هذا العصر الجديد صارت له مُعطيات أخرى أسهمت في صعود دول وجماعات إرهابية بفضل استطاعتها إحراز تقدُّم كبير في "الاستخبارات مفتوحة المصدر"، فهي الآن تخترق الآلات والعقول معاً. وبينما يقوم الذكاء الاصطناعي بإنشاء مقاطع فيديو مزيفة، وصور تبدو حقيقية للغاية، وقد يكون من المستحيل اكتشاف عدم حقيقتها؛ لم تتغيّر الكثير من أنظمة الاستخبارات بحيث تواكب هذه المتغيرات الجديدة.

قديماً، كانت حيلة تحويل القوات الصينية معاطفها من الداخل للخارج حتى لا يتم رصدها في التلال الثلجية بالقرب من نهر يالو، مُجدية، ومن بعدها إطلاق السوفييت "تدابير فعّالة" أو حملات مُضللة لزرع الشّك، أما الآن فالعمليات الجارية في ظل بيئة "الاستخبارات مفتوحة المصدر" صارت عالية التقنية، بحيث يُنظر للجهود السابقة باعتبارها غريبة وأكثرها لا يكاد يصلح الآن.

أداة للفهم:

أخيراً، يُعد هذا الكتاب مثالياً لأي شخص يُحاول فهم كيفية مواجهة مجتمع الاستخبارات اليوم لتحديات العصر الرقمي، في ظل القضاء شبه الكامل على السرية والخضوع لسيطرة الحكومات. فقد يكون الكشف عمّا يعرفه المجتمع بنفس أهمية ما لا يعرفه، في عالم قد تؤدي فيه المفاهيم الخاطئة والمغلوطة والمُشوّهة إلى إخفاقات كارثيّة. فالحقيقة هي سلاح قوي بالرغم من كُلفتها التي لا يستطيع الجميع أداءها. يبقى فقط أن نرى أين ومتى سيلتقي بوتين بـ"الجسر المكسور" لكي تتكرر نهاية المغامرة الأمريكية والروسية معاً بالرغم من الفارق الزمني الكبير؛ طالما تشابهت البدايات إلى هذا الحد، وفقاً للكاتبة.

عن المستقبل:

"المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة"، هو مركز تفكير Think Tank مستقل، تأسس في 2014/4/4، في أبوظبي، بدولة الإمارات العربية المتحدة، للمساهمة في تعميق الحوار العام، ومساندة صنع القرار، ودعم البحث العلمي، فيما يتعلق باتجاهات المستقبل، التي أصبحت تمثل مشكلة حقيقية بالمنطقة، في ظل حالة عدم الاستقرار وعدم القدرة على التنبؤ خلال المرحلة الحالية، بهدف المساهمة في تجنب "صدمات المستقبل" قدر الإمكان.

ويهتم المركز بالاتجاهات التي يمكن أن تساهم في تشكيل المستقبل، على المدى القصير، خاصة الأفكار غير التقليدية والظواهر "تحت التشكيل"، مع التطبيق على منطقة الخليج، من خلال رصد وتحليل الاحتمالات الممكنة، للتفاعلات القائمة والتيارات القادمة، وتقدير البدائل المتصورة للتعامل معها، باستخدام مناهج التفكير المتقدمة، عبر أنشطة علمية تجمع بين الأكاديميين والممارسين، والشخصيات العامة، من داخل الإمارات وخارجها.

أنشطة المركز:

مجلة اتجاهات الأحداث: دورية أكاديمية فصلية، تهتم بتحليل اتجاهات المستقبل على المدى القصير، بما يتضمنه من تيارات وتطورات، متعددة الأبعاد، وذات تأثيرات استراتيجية، وذلك في مجالات اهتمام برامج المركز.

تقديرات المستقبل: تقديرات يومية ترصد وتحلل وتقييم الأحداث والتحولات الإقليمية على المدى القصير التي تشهدها منطقة الشرق الأوسط والعالم وتداعياتها على منطقة الخليج العربي لدعم عملية صنع القرار.

دراسات المستقبل: سلسلة دراسات أكاديمية تصدر شهرياً عن «المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة»، وتركز كل دراسة على قضية واحدة تمثل ظاهرة صاعدة على المستوى الاستراتيجي تتسم بالتعقيد وتعدد الأبعاد، وتهيمن على الجدل العام في الشرق الأوسط والعالم.

أوراق أكاديمية: أوراق علمية متخصصة، تتضمن أحد المفاهيم المتقدمة، أو الاتجاهات النظرية الراهنة، وتطبيقاتها المختلفة، سواء في العالم أو في منطقة الشرق الأوسط.

بوابة المستقبل: موقع إلكتروني أكاديمي، يقوم بنشر تحليلات يومية، باللغتين العربية والإنجليزية، حول أهم الأحداث والتطورات الجارية في المنطقة والعالم، ويغطي الموقع إنتاج المركز المطبوع وأنشطته المختلفة، من لقاءات عامة وحلقات نقاشية، ويقدم خدمات علمية تتعلق بعروض الكتب والدراسات، وقواعد البيانات والخرائط السياسية.

تقرير المستقبل: نشرة يومية تتضمن أبرز التقديرات والتحليلات التي ينتجها باحثو المركز، أو ما ينشر على موقعه الإلكتروني أو الدورية التي تصدر عن المركز، وترسل عبر البريد الإلكتروني باللغتين العربية والإنجليزية.

فعاليات المستقبل: ينظم مركز "المستقبل" عدة فعاليات مثل (اللقاءات العامة - حلقات النقاش - الدورات التدريبية)

ملفات المستقبل: سلسلة ملفات تجميعية تصدر بشكل غير دوري، وتتناول أهم الأحداث والتحولات الإقليمية والدولية، التي تشغل اهتمام الجمهور وتتصدر نقاشات المجال العام وقت صدورها.

رؤى عالمية: تهدف إلى عرض أبرز ما يُنشر في مراكز الفكر والمجلات والدوريات البحثية الغربية، من أفكار غير تقليدية واتجاهات صاعدة في مختلف المجالات السياسية والأمنية والاقتصادية وغيرها.

جميع حقوق النشر محفوظة © 2023